الحكمة الڤيتنامية

الجيلالي الطّاهر جلوفات

هل «الحَمَّامَات»[1] فتنتُها في اسمِها، أم في بحرِها، أم في الياسمين الّذي يصبغ برائحته ولونه مساءاتِها الصّيفيّة؟ يطوف به صبيان في الزّيّ التّقليدي: البلغة، السّروال الفضفاض، الفوقيّة المرصوعة، الطّربوش الأحمر على الرّأس، وفي اليد سلّة تطلّ من حواشيها رُبَيْطاتُ الياسمين المنتظمة. ينتشر الياسمين بأطفاله «الفولكلوريين» في طرقاتها، بين مقاهيها الشّعبيّة، وفي ساحتها الفسيحة المعبّدة، المحاذية للشّاطئ، الممتدّة إلى القلعة الأثريّة الرابضة، حيث تتبدّى أصداء المهرجانات، وحيث الزوّار من كلّ صوب ومن كل سنّ، فيصطادون المشتري بلطافتهم أو يفحمونه بجرأتهم، لكن عيونهم وقلوبهم تبقى على المطاعم الزّجاجيّة الفاخرة الفارهة حيث يرتخي السُّيَّاح وراء طاولات مسجوعة، يستمرئون عطايا البحر الأبيض والبرّ الأخضر، ومن خلال الزّجاج يتابعون دفقة الحياة من وقت لآخر في ساحة «الحمامات» النّابضة.

وأمام أكثر هذه المَطاعم نجوماً وقف غلامٌ ناهز البلوغَ، بلا لباس تقليدي وبدون سلّة، وفي يده ورود بنفسجيّة. رمقه طفلان من بعيد يتربّصان بالسُّيَّاح فتصايحا: «هاهو الڤيتنامي جاء».

هكذا سمّاه أطفالُ الياسمين، توارثوا التّسمية جيلاً عن جيل. قرأوا الاسم على وجهه ذي البشرة الصّفراء، وفي امتداد عينيه إلى جانبي وجهه، وصدغيه النّاتئين، وفحومة شعره المتين. سمَّوْهُ «الڤيتنامي» دون تحديد، دون تفكير في خطّ العرض السّابع عشر[2]. يسمعون عنه الكثير من الرّوايات، لكنّ ما يثبت على لسانهم هو أنّ «الڤيتنامي» يظهر في «الحمامات» صيفاً ثمّ يختفي! طاف بالياسمين مثلهم مدّةً ثمّ اهتدى ـ لا يعرفون كيف ـ إلى الوقوف أمام هذا المطعم ومثيله، وفي يده ورود حمراء أثناء فترة الغداء وورود بنفسجيّة أثناء فترة المساء. والظّاهر أنّه بشيء من هذا ينال احترام المشرف على المطعم وانتباه النّازلين!

وفيما كان الطّفلان يتجادلان حول المنصب الّذي وصل إليه «الڤيتنامي»، وقف عليه فارس أصفر البشرة، أفحم الشّعر، صدغاه بارزان، جبينه عريض تحته عينان ممتدّتان إلى الجانب، ذراعه العارية السّمراء تحوّطت ذراعَ أميرة شقراء. مدَّ «الڤيتنامي» الوردَ للفارس، وقع على ذوق الفارس بابتسامة محسوبة، وانحناءة «ڤيتناميّة» في حقّ الأميرة والوردة طيّ أصابعها المتشبّثة بفارسها. ثمّ استوى لينثني ثانيةً وقد ناوله الفارسُ الأصفرُ ورقةً خضراء. قال أحد الطّفلين: «ذراعه المبتورة هي سبب حظّه». وردّ الثّاني: «هذا المطعم يأتيه «الجابونيون»، «الڤيتنامي» يعرف لغتهم فلا يفوتونه». وفاتهما أنّ الفارس كان يخاطب «الڤيتنامي» بالانجليزيّة.

وانشغل الطّفلان بالقادمين إلى السّاحة، فيما انشغل «الڤيتنامي» بالفارس وأميرته. من عادته أن يقنع بقيمة الورقة الخضراء، لكن شيئاً أقوى من الكرم يشدّه إلى هذا الفارس، يثير في ذهنه ذبذبات، يودّ لو يقول شيئاً يتلجلج به الصّدر.. ولكن، ولكن جلسة الفارس إلى أميرته قد تطول وتطول، وهواذا طالت وقفته قد يفقد بعضَ احترام المشرف على المطعم. فليمضِ، قد تتكرّر الفرصة. واختلس نظرةً إلى الفارس الّذي يفصله عنه حائط من الزّجاج، سماء صافية بخمسة نجوم، فرمق المشرف نفسه واقفاً في الخدمة، يشير بكفّه في اتّجاه معيّن كأنّه يستقدم شخصاً، فإذا الشّخص نادل وضّاء المحيّا يحمل طبقاً مشتعلاً، يمشي منتصباً والطّاعمون تصدر عنهم «أوهات» الاعجاب! حتّى إذا وضع الطّبقَ المستطيل تكوّرت عينا «الڤيتنامي» الممتدّتان تحدّقان في سمكة كبيرة يسبح لونها في الألوان، وفي ظهرها أُثبتتْ أعوادٌ مشتعلة اشتعال البارود!

تحرّكت الشّقراء بمفاصلها وتفاصيلها إعراباً عن امتنانها لفارسها، فيما تجمّدت قدما «الڤيتنامي» وقد ذاب فيهما الرّصاص. بزغ الشّعاعُ من عيون الأميرة وفارسها. هذا ينكسر على ذاك، ذاك يذوب في هذا، بينما انبثق من حدقتي «الڤيتنامي» شعاع ممغنط. انشدّ إلى السّمكة يفحصها ويقلّبها، وفي النّفس إشارات، ظلال، أصوات، تتوالد من انعكاس الشّعاع:

«هذا النّوع من السّمك أعرفه، هذه السّمكة أعرفها، إن لم تكن هي بعينها فلاشكّ صغيرتها أو صغيرة صغيراتها. عندما كنتُ صغيراً أمسكتُ بهذه السّمكة، ذات يوم، ذات سنة؟ منذ سنين، في قريتنا، كم كان عمري؟ قال لي أبي: بلغت السّابعة، اليوم ستتعلّم أوّل حكمة من الحكم الّتي تعلّمناها حتّى تعرف كيف تحيا بين النّاس.

(١) «الحمامات»: مدينة شاطئية بتونس.

(٢) خط العرض السّابع عشر: خط مصطنع لتقسيم «ڤيتنام» إلى شمالية وجنوبية.

أخذني إلى النّهر. . . علقت السّمكة بشصّي. صحتُ ثم صحتُ. أقبل أبي يرشدني حتّى أخرجتها. تأمّلها، طلب منّي أن أبقيها في الماء وهو يقول: «نحن أربعة، هل تكفينا هذه السّمكة للغداء؟».

ـ قلت: تكفينا أيّاماً.

ـ هل تستطيع أن تصطاد أصغر منها؟

ـ طبعاً.

ـ انظرْ إلى هذه القرية، فيها عائلات أكثر أنفساً منّا. اتركْها لواحدةٍ منها واصطدْ سمكةً تكفي أربعة أشخاص.

فهمتُ الحكمة، أوّلَ حكمة، استسلمت. استلّ أبي بيده الحكيمة الزهوَ من صدري والشّصّ من فم السّمكة الكبيرة التي لم تستسلم.

ثمّ خبا شعاعُ عينيه، والنّادل بأدواته العازلة والقاطعة يقطع السّمكةَ بحكمةٍ مدروسة تحفّ به نظراتُ الإعجاب من الفارس وأميرته. فتجمّع الحديث في صدر «الڤيتنامي» يكاد يكون زمجرة: «أهذه هي العائلة الّتي تركنا السّمكة من أجلها يا أبي؟» لكن دويّاً مرعباً طغى على صوته. فنظر إلى السّماء، فإذا الشُّهُبُ الاصطناعيّةُ تتناثر مخلّفةً دويّاً تجاوز ما تعوّدته الآذان، فهاجت الجموع في السّاحة وماجت، وألفى البعضُ نفسَه في حضن البعض من الفزع، وألفى «الڤيتنامي» يده بوردها على كتف بلا ذراع بلا ساعد! فاندفعتْ بواطنُهُ وأعضاؤه نحو الحشود اندفاعاً جارفاً، يسمع صوت «بابا» أو «ماما» فتنقدح في ذهنه بلدتُهُ ببيوتها وغابتها ونهرها تحت سماء راعدة تمطر بالشّواظ والحديد، تقتلع الجذورَ، تُحرق الجذوعَ والجسوم، تُبعثر الأعضاءَ، تنضب المياهَ الدّافقة. . واستشعر بعضَ الدفء في أصواتِ النّاس وضحكاتهم، بعد إذ تعوّدت آذانُهم الدّويَّ حتّى خفَّ ليرتفع دويُّ الموسيقى، فتهاوى على مقعد اسمنتي قبالةَ البحر يهامسه، في يده الوحيدة وردٌ بنفسجي، وفي مجاري ذاكرته المنسابة حكمة بزعانفها تسبح!

سيدي يحيى الغرب
(المغرب)

صومعة الضّباب

حسّان يوسف مُحمّد

قلت له منذ زمن بعيد: «أنت مشروع مجنون». توقّعت أنْ ينتفض، لكن كلّ ما فعله أنْ ابتسم ببلاهة وعلّق ضاحكاً: «بل إنّني مشروع مُنجز. .».

والآن فإنّ قناعتي قد ازدادت بأنّ ما بقي في رأسه من حكمةِ تلك الأيّام قد طار إلىٰ غير رجعة. .

انشغلتُ عنه عشرة أيّام دون أنْ أراه. . لعلّه مات؟

إنّ أحداً لا يطرق بابه، وهو في صومعته يتابع انقطاعه عن العالم، ويصرّ أنّ روحه تقترب بهذا الانقطاع من الخالق.

«لماذا أخرجُ، إذا كان كبيرُ فلاسفتكم سارتر قد توصّل إلىٰ أنّ الجحيم هو الآخرون»؟

يتحكّم بي بشواهده ممّا يقرأه. إنّ تواصله مع العالم ينحصر في الكتب. فهو يقرأ كالجرذان. يلتهم كتباً لا تعدّ ولا تُحصىٰ.

أحاربه بأسلوبه، أدفع له كتباً تعارض آراءه، تُحرّض علىٰ العيش في قلب الحياة إلىٰ جانب البشر. ولكن. . لعلّه مات؟

أنا صديقه الوحيد لكنّه لا يعترف بصداقتي، يقول إنّه صديق الكتب فحسب، وأمّا أنا. . فمجرّد متطفّل. .

لكنّ الكتب لن تستطيع الصّراخ إذا توقّف نبضُ قلبه. . ولنْ تذرفَ دمعةً واحدة عليه.

ـ ستصبح جيفةً، تفوح رائحتها علىٰ البلدة، حين نكتشف موتك.

ـ لكنّ جثّتي بلا رائحة، فأنا لمْ أتمرّغْ بعالمكم.

أَدْفَعُهُ لقراءة تجربة كازانتزاكي مع الأديرة والرّهبنة، في صحراء سيناء وجبلها وديرها. . حديثه مع الأب جواكيم. كلمات الأب:

ـ إنّني أشفق علىٰ خديْكَ اللّذين مازال الرّغبُ يغطّيهما، وعلىٰ شفتيك اللّتين لم تشبعا من القُبل أو من الكفر، وعلى روحك البريئة الّتي تندفع نحو الهلاك لكنّني لنْ أتركك. إنّك علىٰ حافة الهاوية ولن أتركك تسقط

ـ أيّة هاوية؟

ـ هاوية الله أعرف أنّ رغبة الإنسان السّامية هي في القداسة هذا جميل، لكن علينا أولاً تجاوز الرّغبات الأقلّ سموًّا، يجب أنْ نتعلّم احتقارَ اللّحم والتعطّش للسّلطة والذّهب والعصيان.

ما أعنيه هو أنْ نعيش شبابنا وكلَّ عواطفنا البشريّة كاملةً.

يجب أنْ نُفرغ هذه الأصنامَ من محتوياتها عند ذلك نقدّم أنفسنا أمام الله.

ـ لا أستطيع التوقّفَ عن الصّراع مع الله؛ سأظلّ أتصارع معه حتّى اللّحظة الأخيرة الّتي أقدّم نفسي فيها أمامه.

ـ لا تتوقّف عن الصّراع مع الله. لكن إنْ كنت ترغب في التّغلّب